الشبيه(*)

(*) نشرت في جريدة "العراق"- ١٩-١١-١٩٨٧- بغداد بعنوان "الحارس"

الشخصيات:

- مسعود: حفار قبور، تجاوز السبعين.
- خليل: حارس المقبرة يكبره ببضع سنوات
- محمود: شاب في العشرين. ساعد مسعود

اشـــــارات

- قدمتها فرقة نقابة الفنانين_ ميسان شباط_ ١٩٨٨
- شاركت في مهرجان المسرح العربي - بغداد
- اخرجها الفنان مكي حداد

[مقبرة، تنتشر في ارجائها قبور عديدة، باحجام مختلفة واشكال متباينـــة. تكشف الاحوال المادية لاهل الراقدين فيها، من غنى ونعيم او فقر وجوع..

سقيفة من أعواد القصب واغصان الاشجار واوراقها، تحتها حب ماء فـوق محمل، وشدة فراش، وحاجات اخرى، مبثوثة هنا وهناك.

الوقت قبيل الظهيرة، شمس قوية تملأ المكان. قبور محفورة ومردومـــة، حفرة جديدة يجري فيها العمل على قدم وساق. بداخلها حفار القبور مسعود وهـو يحفر ويلقي بالاتربة خارجها، ما يلبث ان يخرج منها.وهو رجـــل قـد تجـاوز السبعين يدفع بادوات عمله اولاً، تتوجه نحو السقيفة، مقــوس الظــهر، يشــرب الماء. يغسل وجهه يجلس يشعل سيجارة. يسعل بقوة، يدخن بشراهة، ثم وبعـــد بضعة انفاس، يهب واقفاً. يشرع بردم الحفرة التي انتهى، لتــوه، مــن حفرهــا، والسيجارة بين شفتيه بهمة ونشاط وسرعة..

بين اونه واخرى تهب رياح وعواصف، فتثير سحابة كثيفة من الاتربـــة.. يدير لها ظهره ويستمر في مواصلة عمله.. بالرغم من العرق المتصبب من كـــل انحاء جسمه وسعاله الذي لا يكاد يتوقف..

يقبل حارس المقبرة، وهو رجل في مثل عمره، او يكبره ببضـــع ســنوات ويبدو اكثر منه تهدماً وانهاكا.. يسير على عكازه، يلهث في غاية التعب..]

الحارس: ها مسعود.. كيف حالك اليوم؟

مسعود: (دون ان يتوقف او يلتفت نحوه) نحمده..

الحرس: سبحان الذي لا يحمد على مكروه سواه.. (ثم) ما زلت تحفر وتردم..

مسعود: (بجفاء) ما الغريب..؟ (يسعل)

الحارس: لا. لا غرابة. لا غرابة البتة.. (يتوجه نحو الماء)

مسعود: لا اظنني.. مسيئا الى احد..

الحارس: اوه.. لا.. لا. بالتاكيد لا.

مسعود: ثم.. ثم.. انا حر، افعل ما اشاء.. ما دمت ادفع لك.

الحارس: (يتوقف) لي؟ لي انا؟ هل انا مالك المقبرة؟

مسعود: الست من يأخذ مني الايجار والضرائب والزيادات و.. و..

الحارس: الحكومة هي المالكة وهي التي تامرني ان..

مسعود: انا لا اعرف لها مالكا.. سواك. تأتيني كل بداية شهر كالغريم.

الحارس: ليتني املك بضعة اشبار منها، تأوي جسدي.. اذ يسترد الله امانتـه..ولا اظل ملقى في العراء تفترسني الكلاب السائبة.

مسعود: (يرنو اليه) انا.. امنحك اياها..

الحارس: (مبتسما) لوجه الله..؟

مسعود: لوجهك! كي لا اعود اراه بداية كل شهر.. (يردم الحفرة بعصبية)

الحارس: انت سيء المزاج.. هذا اليوم.. ولا ادري لماذا (ثم) ما الذي جرى يـا رجل؟

مسعود: تعال عارك الارض بمعول مثلوم.من قبل طلـوع الشـمس، حتـى بعـد غروبها مثلي، ثم حاول ان تحتفظ بمزاج افضل.

الحارس: انما.. انا اشفق عليك لهذا الجهد الذي تبذله.. دون طائل (يشـير الـى الحفر المبثوثة هنا وهناك)

مسعود: (يلقي بالاتربة بانفعال، يسعل) لماذا بلا طائل.. الله يرزق العباد..

الحارس: امنت بالله.. (يشرب..)

مسعود: يحبسه اياما.. ولكنه يطلقه اياماً اخر. (مخاطبا نفسه) بالتـــأكيد يطلقــه (ثم) لا بد ان يطلقه.. فهو ارحم من ان يحبسه.. اكثر مما فعل..

الحارس: (يتودد اليه) لا اعرف كيف تحتفظ بمائك بارداً في هذا القيظ..؟

مسعود: (مهملاً ملاحظته. مسترسلاً)واذا كان الرزق لم يعد يزورني هذه الايـــام. يتوجب علي ان اكون مستعدا لاستقباله. حين يأتي (يحدّق فيه).

الحارس: وهكذا تستقبله بالقبو.. بالحفر التي تنثرها هنا وهناك..

مسعود: انثرها؟ اتحسبها زهوراً ازين بها مقبرتك.

الحارس: (بحدة) انها ليست مقبرتي..

مسعود: ولكن قل يا خليل.. هل تخشى القبور..؟ (يسعل)

الحارس: أ..أ. أ.. انا.

مسعود: ولهذا السبب تتجنب ذكرها.. ها؟.

الحارس: الاعمار بيد الله..

مسعود: والا رزاق من عند الله (يحدق فيه طويلا)

الحارس: لماذا تحدق بي على هذا النحو الغريب؟ اتنوي ان تقدمني طعاما لاحـدى حفرك الفاتحة اشداقها..؟

مسعود: انا لا اتركها مفتوحة. اخشى ان يسقط فيـــها حيـوان ضـــال (يســعل) فيحملني الله الذنب (يواصل الردم. تأخذه نوبة سعال)

الحارس: لو.. لو تعالج سعالك. (لا يجيب) انه.. انه.. بات يصدع كيانك..

مسعود: انا.. ادرى منك بحالي.. احتفظ بنصائحك لنفسك (يسعل، الحارس يهم ان يجلس) ماذا جئت تريد؟

الحارس: عطشت.. مائي يفور.. جئت اشرب من مائك البارد.. و.

مسعود: و..؟ وماذا ايضا؟

الحارس: ها؟ لا. لاشيء (ثم) الوحدة.. يا مسسعود. الوحدة قاسية. لا تطاق. بت لا اطيقها. تملأني بافكار سوداوية خانقة.. ترعبني. (مسعود لا يجيب. يواصل عمله. يسعل) و.. و.. انت.. الا.. الا تشعر بالوحدة.

مسعود: عمّ تتحدث؟ اني اعمل. (يهيل الاتربة بعصبية) و.. وحبّذا لو تتركني.

الحارس: (بانكسار) هـ.. هل.. اجد عندك سيجارة.. قضيت على اخر واحدة.

مسعود: (بفظاظة) العلبة عندك.. خذ منها ما تشاء.

الحارس: سيجارة، سيجارة واحدة حسب. (يتناول واحدة، يشعلها) هل اشعل لك واحدة؟

مسعود: لا. (يسعل)

الحارس: لو.. لو.. ترسل لي الولد محمود.. حين يأتي.

مسعود: لن يأتي (يسعل) ثم.. انه ليس ولدا. محمود رجل.. (تاخذه نوبة سعال)

الحارس: ما.. ما.. كنت.. اقصد.. ان..

مسعود: انه.. انه.. في العشرين من عمره.. ولولا ما اصابه لكان الان مهندسا له شأن..

الحارس: صحيح.. صحيح. اعانه الله.. واعان والديه.. لقد هجمت عليهم الكوارث دفعة واحدة. بلا رحمة.. ولا سيما.. هو.. المسكين (يشير الى رأسه)

مسعود: (بحدة) محمود.. ليس مجنونا.. (الحارس يسكت) ماذا تريد منه؟

الحارس: (مترددا) لا.. شيء.. لا.. شيء..

مسعود: (بحدة) لماذا ارسله اليك.. اذن؟

الحارس: كنت.. كنت.. اود.. ان ان.. ان يشتري لي علبة سيجائر.. ولكــــن.. لا بأس، لا.. باس. ساتدبر حالي..

مسعود: محمود ليس خادما.. خذ العلبة (يساوي سطح الحفرة، بعد ان انتهي مــن ردمها)

الحارس: (يرمي العلبة) حتى كرمك بغيض.. مثلك.. (يذهب).

مسعود: (يتامله من الخلف. يشير الى طوله دونما يدعه يشعر. يعــود مســرعا، يضع علامات على موضع جديد.. يباشر الحفر) الحظ لا يطــرق البــاب دائما. ولكن حين يخطأ ويطرق. يجب ان يكون ثمة من يفتح له بســرعة ويرحب به، قبلما ينتبه ويصحح خطأه.. ويعود ادراجه. (يواصل الحفــر، يظلم المسرح، لفترة مناسبة، واذ يضاء ثانية يكون قد انجـــز الحفــر.. يخرج من الحفرة، يتاملها هنيهة.. يجري عليها اللمسات الاخيرة.. يبــدو عليه الرضا.. يأوى الى السقيفة. يتناول طعامه.. يستلقي.. يدخـــن.. لا يكف عنه السعال. ينهض. يتطلع هنا وهناك.) لا اثر له. متى يأتي هـــذا الوغد؟ ما الذي جرى له.؟ لم يتاخر قط (يتكيء علــــى شــاهد.. قــبر.. هنيهة، لا يلبث ان ينهض ثانية، لا يقر له قرار.) اها.. واخيراً؟ اخـــيراً ظهر قمر النهار. تعسا لشباب هذه الايام. تفو. يشـــترون ســاعة نــوم اضافية بعمل يوم كامل.. (يجلس، يقلد صوت امرأة) محمود لا ينام. لـــم يعد ينام. لا ادري ماذا دهاه. طوال الليل يتقلب على فراشـــه. الان فقــط اخذته غفوة. لا.. عيني.. لا.. يا مسعود.. لا استطيع ايقاظه.. دع الولــد يشبع من النوم (بصوته الاعتيادي) والان.. لماذا ايقظتـــه..؟ لمــاذا لــم تدعي ابنك المدلل يولج النهار كله في الليل.. ويشــبع مــن النــوم حــد التخمة. (يدخن، يسعل) ثلاثة قبور.. حفرتها وحدي. لقد يقصم ظـــهري.

كلت يداي. تداعى كل جسمي لا. لن. اعطيه فلساً واحداً.. ليأخذ اجره من امه التي تفسده.. دون تدري.. تدلـــله وتعلمه الكسل.. بدلاً من.. (يدخـل شاب هزيل.. عليه سيماء من يعاني من مرض غير واضح الاعـــراض) اشرقت؟ اشرقت يا امير اخيرا؟ الا ترى الشمس لم تغب بعـــد (يســعل) كان عليك ان تظل نائما وتتركني ادفن الموتى وحدي. مثلما حفرت كـــل القبور وحدي.. ثم اتيك باجرك واضعه لك تحـــت وســادتك (الشـــاب لا يجيب. يظل واقفا منكس الراس، يصرخ فيه) هل نام احد حتى الان؟

محمود: (باحساس بالخذلان) لم اكن نائما.. عمي مسعود.

مسعود: امك كذبت عليَّ.

محمود: امي.. لاتكذب.

مسعود: (يقلد نبرة صوته) امي لا تكذب. في هذه الحالة انا من يكذب.

محمود: حاشاك. عمي مسعود. كنت في الفراش ولكني لم اكن نائما.

مسعود: وماذا تفعل في الفراش وانا هنا تحرقنـــي الشـــمس ويخنقنـــي الـــتراب (يسعل)

محمود: لقد.. كنت..

مسعود: لا شأن لي بما كنت واين كنت.. عد حيث كنت.. (يسعل بحدة)

محمود: (بقلق) عمي مسعود.. هل انت بخير.

مسعود: ولماذا لا اكون؟ انا دائما بخير. بوجودك او بدونك.

محمود: عمي مسعود.. انا..

مسعود: انت يا لا أجر لك عندي اليوم.

محمود: ما من اجل ذلك جئت.

مسعود: ومن اجل ماذا جئت بعد منتصف النهار.. تساعدني في دفن الموتى؟

محمود: (يتطلع حواليه) د.. د.. دفن الموتى. آ آ آ.. ين هم؟ (ثم) كمـــا تشـــاء..
كـــ.. كـــ.. كما.. تشاء..

مسعود: لا. عند الدفن لا احتاج مساعدتك. دائما ثمة اناس مع الميـــت، يقدمـــون خدماتهم.. وبلا مقابل.

محمود: اسف.. انا.. انا.. اسف جدا.

مسعود: وبمَ ينفعني اسفك لقد هدني التعب، وهذه القبور اللعينة امتصت كل قواي

محمود: كان الله في عونك..

مسعود: (يسعل) انه لا ينتظر الاذن منك.. (يغلبه السعال)

محمود: (يتالم لحاله) اه.. اه.. (يتوجع)

مسعود: اسمع يا محمود.. بلا تأوهات.. ولا نحيب. ابوك رجل طيـــب وصديـــق العمر. وهو الذي رجاني ان ادعك تعمل عندي (يسعل) ولكني لا اســـتطيع ان اعطيك شيئا.. أي شيء لقاء لا شيء.

محمود: صحيح.. عمي.. ماتقوله.. صحيح..

مسعود: ثم.. ثم.. هو نفسه لا يرضى. ان ادفع لك لقاء نومك حتى الظهيرة. فانـــا انا.. بعد كل شيء.. لست جالسا على كنز. وان مايدره على كدي وعملي الشاق يكفيني ولا يكاد.. يكفيني..

محمود: انت محق.. عمي.. لك الحق.. كل الحق..

مسعود: وما ادفعه لك.. انا بامس الحاجة اليه..

محمود: اعرف. و.. و.. منذ اليوم.. لا.. لا تدفع لي شيئا..

مسعود: (بدهشة) تعمل بلا اجر؟ مجانا؟ (يسعل) لا يامحمود لا. انا رجل شـــريف لا اقبل صدقة ولا منة من احد.. و.. ولا استغل احدا.. ابدا..

محمود: انا.. انا.. لا.. لا اعمل.. لا اريد ان.. اعمل..

مسعود: و.. بماذا تعيش؟ بالتراب؟ بالهواء؟ ثم.. ثم.. هل فكرت بامك العميـــاء.. وابيك المقعد..؟

محمود: ساعمل.. اقصد.. اقصد.. سابحث لي عن.. عن.. عمل..

مسعود: مهلا.. مهلا.. مامعنى انك.. لا تريد ان تعمل.. و.. و.. اهـــا.. (يســعل) تعني تعني.. انك.. لن تعمل عندي.. لا.. لا تريد ان تعمل معي..

محمود: ا.. ا.. اجل.. عمي.. اجل.(مسعود.. يتوجع. يفرك صدره) عمي.. مابك؟

مسعود: هـــ. هـــ.. هذا.. مالم اتوقعه ابدا.. لـــ.. لـــ.. (يسعل) لم يدر بخلـــدي قط.. تعال محمود.. تعال.. اجلس.. بقربي. هـــ.. هل.. اسات اليك.

محمود: اطلاقا عمي.. انت في منتهى الطيبة.

مسعود: اذن.. ماذا هناك؟ شاق؟ العمل في المقبرة.. شاق عليك؟

محمود: مـــ.. مو.. مؤلم ياعمي.. انه.. انه.. يؤلمني كثيرا.. يسبب الاما فظيعة.

مسعود: ا ها..؟ اتريد راحة بدون الم.. ثم اية الام تلك التي تتحـــدث عنـــها، ان العبء الاكبر يقع على عاتقي انا.

محمود: ليس ذلك.. ما اقصد.. انما..

مسعود: قلة الاجر؟ ها؟ ما حيلتي؟ انا لا اكسب الالاف. والناس الذين يتعـــاملون معي من الفقراء. الاثرياء ياخذون موتاهم الـــى مقـــبرة ذلـــك الكلـــب.. هادي.. ثم..الموتى.. الموتى انفسهم.. هذه الايـــام قليـــــ.. قليـــــ.. اه. اعوذ بالله.. الى م تقودني ياولد؟

محمود: عمي.. مسعود.. انا..

مسعود: انت غبي.. لا تعرف مصلحتك.. خدعك ذلك الكلب العجوز.(يسعل)

محمود: من؟.. من تقصد..

مسعود: لوح لك باجر اكبر.. اليس كذلك؟

محمود: ولكن من؟ من هو..

مسعود: هادي.. ومن سواه؟ ولكن ليكن في علمك ان ارض مقبرتـــه صخريـــة. تصارع المعول، يتكسر فوقها الحديد ولا تتخدش. انها اســوأ ارض فـــي الدنيا.. ولكنه محظوظ. الكلب محظوظ. يتقاضى اعلى الاجور. و..

محمود: لا علاقة له.. بما قررت.. انا..

مسعود: بل هو. ذلك الكلب الفاطس. لابد ان ادفنه بيدي، ذلك قبره لن اردمه ولـن اردمه الا بجثته الملعونة.. وعن قريب.. قريب جدا بـــاذن الله.. انظـــر.. انظر. (يذهب الى احد القبور، ينزع عنه غطاءه، تغلبه نوبة الســـعال..) هـــ. هنا.. ادفنه.. ان شاء الله (يسعل بحدة)

محمود: (بقلق متزايد) عمي.. حالك.. تســـوء.. تســوء كثـيرا.. لنذهـب الـــى المستشفى.. تعال اخذك الى المستشفى..

مسعود: (مستمرا) ما يفتأ يتزايد عليّ كل موسم، هو وذلك الكلب الاخـــر خليـــل الحارس، الذي يسانده. حتى جعلاني ادفع اضعاف ما كنت ادفع..

محمود: ياعمي صدقني ان هادي..

مسعود: (يقاطعه) هادي او غيره، كلهم كلاب جشـــعون. يقتلـــون امهاتـــهم فـــي سبيل.. مضغة من لحومهن(يسعل) ولكن لن تجد عند أي منـــــهم ارضـــا رخوة هشة مثل ارض مقبرتي. تتفتت من مجرد اللمـــس. هـــل تـــرى.. بوسعك حفرها بالاظافر حسب. بلا مشقة ولا الم.. انظر.. انظر (يحفـــر الارض بكلتا يديه) اين نجد مثل هذه النعمة.. ها.. اين..؟ اين؟

محمود: كف عمي.. ارجوك كف.. انت تدمي اصابعك.. تكســـر اظـــافرك(يمســـك يديه) انا لا اعمل عند أي منهم. لا عند هادي ولا غيره، انـــا.. لا انـــوي العمل في حفر القبور.. اساسا.. يا عمي.

مسعود: ها؟.. (يتوقف، بتظر اليه بدهشة) مـــ.. مـــ.. ماذا تقصد..

محمود: ساقلع عن العمل.. في المقابر..

مسعود: (بسخرية) لعلك تنوي العمل في التجارة(ضحكـــه مـــرة) واذ يوفقـــك الله وتغدو تاجرا كبيرا. لا تنس عملك مسعود المنبوذ بين القبور..!

محمود: لا انسى عمي ولا فضله ما حييت..!

مسعود: عجيب امرك(يسعل) اذن لماذا تتركني وانت في مسيس الحاجـــة الـــي؟(محمود يتعذب) ما بك يامحمود. افصح عما في نفسك. يـــاولدي.. تكلـــم بصراحة..

محمود: اه.. ليتني استطيع..(يعاني) ليتني استطيع..

مسعود:هل يريبك مني شيء؟ اثمة غش في عملي؟ اخون الموتى. مثلا..؟

محمود: استغفر الله. انت مثال الاستقامة والنزاهة..

مسعود: اذن. اذن ماذا هناك. تكلم ياولدي تكلم. لا تدعني افقـــد عقلـــي(محمـــود يتعذب) اسمع ياولدي.. انا في مقام ابيك. وقد عهد بك الـــي.. وامننـــي عليك. حتى.. حتى فكرت وخططت لرفع الحمل عن كـــاهلي و.. والقائـــه على عاتقك انت. فانت موضع ثقتي.. واعتمادي. فكن واضحا معي. قـــل كل مايمن لك.. لا تخف شيئا.. هيا.. هيا

محمود: اسف عمي.. انا اسف. منذ اليوم.. لا تعتمد علي

مسعود: اعتمد عليك؟(يسعل) ما الذي تقول ياولد؟ انا اعتمادي اولا واخراً علـــى الله وعلى جهدي.. الذي مازلت ابذله كالف حصان. وما دمت قادرا علـــى حمل المعول فلن اعتمد على مخلوق، كائنا من كان..

محمود: اعرف.. اعرف.. كم انت ابيّ وشهم.. وانا.. انا .. كل امنيتي ان اظـــل معك ولكن

مسعود: ولكن ماذا يامحمود. ماذا(يسعل بحدة) قل.. تكلم.. ولا تدعني اختنق..

محمود: انا.. انا افديك بروحي.. ياعمي.. انا..

مسعود: لا حول ولا قوة الا بالله.. لا تفدني ولا تخدمني.. ولكن قل لي.. قل لــي حسب.

محمود:الـ.. العمل.. عملنا.. يمزقني.. يملأني بالتعاسة، لا يدعني انـام.. يقتـل النوم في عيوني.. يزرع ليلي بالسكاكين.. ونهاري بالاشواك. لـم اعـد اعرف لي راحة، ولا هدنة من عذاباتي(مسعود يحدق فيـه.. يرتبـك.. يتلعثم) هـ.. هـ.. هل انت غاضب مني..؟

مسعود: ها؟ لا. لا(يسعل) ولكني مندهش. مندهش حتى النخاع. لو كان هذا حالك في الايام الأول.. لما اندهشت.. ولكن بعـد كـذا سـنة.. مـن العمـل والمشاركة في كل شيء. تاتي لتقول لي كذا وكذا.. انا.. انـا مندهـش مندهش حقا.. بل.. بل.. تكاد الدهشة تفجرني..(يسعل)

محمود: عمي.. انا..

مسعود: كنت احسبك منسجما.. مع عملك.. ومشدودا اليه بقـوة.. و.. وحتـى.. سعيدا به..و..بي ايضا.. مثلما انا سعيد.. بك.. و..(يسعل)

محمود: كنت منسجما.. وسعيدا ايضا.. بالعمل.. وبك، بشكل خاص. فقد انقذتنـي من البطالة والجوع، واعدت الي ثقتي بنفسي. بعد ان زعزعتها عواصف الشك في قواي العقلية، اثر فصلي من الدراسة والفترة العصيبة، التعسـة التي قضيتها في المصح والتي لا اعرف كم طالت ولا..

مسعود: انسها.. يا ولدي (يشعل سيجارة) انس تلك الايام الظالمة، من الخير لـك ان تنساها.. ان.. ان(يسعل) تقلعها من ذاكرتك..

محمود: نسيتها عمي. بفضلك نسيتها. وبفضلك لم اعد اخافها. ولا تسبب لـــي أي شيء اذ اتذكرها.. لقد حلت محلها ايام اخر.. ايام جميلة قويـــــة.. انــت صنعتها لي.. كان ابواي، خلالها. يستقبلانني. كل مساء كبطل.. كمنقــذ.. لنفسي ولهما.. ايضا.. وكان ذلك ينبت لي الف جناح احلـــق بـــها فـــي فضاءات من السعادة والشجاعة، لا يحدها حـــد يملأنـــي بقـــوة روحيـــة وجسدية.. تطير بي الى المقبرة قبل طلوع الفجر وقبل وصولـــك ايضـــا. لاخوض نهارا كاملا من العمل الشاق دون أي احســـاس بـــالتعب.. بـــل ممتلئا برغبة عارمة في الاستمرار والتواصل.. وحتى قضاء الليـــل كلـــه في الحفر.. و..

مسعود: (بصوت عميق) ما الذي غيرك. وبت لا تطيقه؟

محمود: لا ادري.. لاادري بالضبط.. او.. او.. لا استطيع ان اوضح ذلـك.. ولا استطيع ان.. ان.. (يرتبك، وتتلبسه حالة انفعال غريبة)

مسعود: (يربت على ظهره يهدئه) طيب.. طيب.. هاك هاك.. بلل حلقك.. (يســقيه ماء) اهدأ.. اهدأ.. لا ترهق نفسك

محمود: (يشرب الماء.. يهدأ الى حد ما) انا.. انا..

مسعود: حسنا.. حسنا.. و.. و.. متى حدث ذلك؟ اقصد.. اقصـــد.. متـــى بـــدات تشعر.. با.. بالضجر اقصد.. بالتعاسة.. او.. او النفور.. اجـــل النفـــور مني.. و..

محمود: (بسرعة) منك لا..(يكاد يبكي) لا. ابدا.. عمي مسعود..

مسعود:حسنا.. حسنا (يربت على ظهره) مــــ.. من المقبرة.. من القبور.. مـــــن حفر القبور. (محمود يتعذب) حين نزلت الى القبر واحتضنـــت الجثـــة.. قبل.. قبل شهر.. على ما اظن(لايجيب) اليس كذلك (لا يجيـــب، ينتحـــب

بصمت) كان ينبغي ان اعرف انه ليس هينا على شاب متعلم رقيق مثلك..ان.. ان يلمس جثة ميت (يسعل)

محمود: رهيبا كان الامر.. رهيبا، اخ.. اخ.. عشت، في لحظة واحدة، كل ليالي المصح الرهيبة الطوال.. اه..

مسعود: هون عليك.. يا محمود.. هون عليك (يسعل) لن يتكرر ذلك.. لن يتكرر البتة.

محمود: كانت دقائق، وربما ثواني حسب.. ولكن فظيعة.. فاقت كل فظاعة. كانت الشمس قد غربت وظلام الليل زحف وشرع ينكشف.. وانا وحدي. في حفرة ظلماء. لا ابصر اصابع يدي، وفي عمق من الارض لا اعرف مداه.. و.. وجثة.. لااعرف جثة رجل هي.. ام امرأة.. شيخ طاعن في السن. ام طفل رضيع مضمخ برائحة حليب امه الثاكل لقد تشوش عقلي. اختلطت الرؤى. كل مابت اعرفه، احسه واشعره وامتلىء به حتى كل شعرة في جسمي. هو تلك البرودة التي تخترق الكفن، وتخشب يدي، وهي تسري في كل كياني. تكاد تحيلني الى عمود جلمود. بالرغم من الحرارة التي يفور بها القبر.. تجعل العرق يتدفق من كل مسامات جلدي وفتحات جسمي. باردا.. كالثلج.. وتحرقني.. تحرقني.. كالنار.. وانا..

مسعود: (يضيف) كفى.. كفى.. يامحمود.. لن يتكرر.. كل ذلك لن يتكرر.. اعدك. اعدك الا اجعله يتكرر..(يسعل) ما فات قد فات.. (مؤنبا نفسه) ما كان ينبغي ان.. ان.. ادعك تنزل الى القبر (ثم منتفضا على نفسه) وماذا كان بوسعي ان.. ان..

محمود: (يتوجع، ويتعذب) اه.. اه.

مسعود: (منتفضا) ماذا كان بوسعي ان افعل.. غير مافعلت. مرغمـــا، مكرهـا . اوجاع ظهري كانت قد اشتدت.. وغدت منشارا ينشرعظامي، ولم يبـادر احد من اهل الميت الى تقديم اية مساعدة، لجأ كل واحد منهم الى دموعه الكاذبة.. منزويا متهربا من كل مسؤولية ازاء ميتهم. (يسعل)

محمود: لا.. لا.. اعرف.. كيف لم امت.. وادفن حيث كنت..

مسعود: بل قفزت كالغزال، مع اول حفنة تراب.. وانت في احسن حال.

محمود: كـ.. كنت.. اكابر.. واتظاهر.. خو.. فا.. منك..

مسعود: مني؟ (يضحك) هل سمعت مني كلمة خشنة ذات يوم؟ (يسعل) عليـك ان تتعلم يامحمود. اذا كنت تريد انْ تحل محلي ذات .. لا بد ان تتعلم . ولـن تتعلم ابدا . اذا لم تقو. وتتصالب.. وتتماسك..

محمود: كان.. شيئا.. فوق طاقة الانسان.. وانا ..انسان.. انسان ياعمي.

مسعود: انا الاخر. اصابني، في البداية، ما اصابك. ربما بدرجة اقل. (يســعل) لا عليك يا ابني.. لا عليك.. لن ادعك بعد الان تنزل الـى القـبر.. ابـدا.. ابدا.. فقط.. فقط.. (يخفت صوته، بنبرة توسل حييّـة) لا..لا تـتركني.. (يقولها. يهمس لا يكاد يسمع. ممزوجا بسعال حاد عال) لا.. تتركني.. يا محمود.. يا ولدي.

محمود: (يعمق) و. منظر الرجال.؟

مسعود: ماذا بهم، هم الاخرون، ايدخلون في قلبك الروع..؟

محمود: تفتتني رؤية رجال يبكون، يعفرون جباههم بالتراب.. يلطخون هاماتـهم بالطين.. وينتحبون ويعوكون.. كالنساء.

مسعود: اهو.. جديد عليك.

محمود: لا. لكن منظر ذلك الشيخ المتهدم، الذي شاء لي سوء حظي ان امسـك به كي لا يلقي بنفسه في القبر قبل حفيده الشاب فارتمى على قدميّ، يـا ذلي، دعني. دعني ادفن نفسي مع حفيدي. انه كل من بقي لي في الدنيـا. اه. اه.. اكشف لي عن وجهه. دعني اشبع منه. اقبله.. و حين هممـت ان البي رجاءه، دفعتني. ودفعته بقوة وقسوة. وانت تصرخ بـه. دعنـا نعمل يا رجل هل نقضي النهار كله في دفن جثة واحـدة. وراح الشـيخ يتمرغ بالتراب وهو يبكي.. يبكي بحرقة تذيب الحديد.. لقد.. لقد.. رايـت فيه ابي.. وفي حفيده الوحيد في كل الدنيا.. نفسـي.. اه.. تمنيـت لـو تنشق الارض وتبلعني.

مسعود: (مواسيا ببرود) ليس فقد العزيز.. لعبة.

محمود: بيد اننا لا نرى فيه سوى لعبة.. او. او بضاعة تالفة.. ننتزعـها منـهم ونرميها في احدى الحفر الفاغرة فاها. كـالغول. التـي بـاتت تنتشـر وتنتشر.. حتى ولو لم يكن.. ثمة موتى.

مسعود: (في شرود. كالغائب عن الوعي) الموتى موجودون. ان لم يـأتوا اليـوم فغدا. (يجيل نظره ساهما في ارجاء المقبرة) انه.. انه.. السـيل الوحيـد الذي لا ينقطع. قد يشح.. ولكن لا ينقطع ولا يجف (يحدق في المجـهول) ما دام ثمة من يلد ومن يولد فلا بد ان يكون ثمة مـن يمـوت. ومـن.. يدفن..

محمود: انها.. لمهنة قاسية.. قاسية حد الوحشـية.. لا تريحنـي.. لا تريحنـي اطلاقا..

مسعود: ومن قال انها تريحني (يسعل) هي باب للرزق حسب. وذلك مـا اقولـه دائما. باب للرزق والعيش.

محمود: ثمة ابواب اخرى (بحماس) لنطرق بابا اخر.

مسعود: بعد.. خمسين.. سنة.

محمود: دائما ثمة وقت.. لمن يريد ان يغيّر نمط حياتــه.. ويتغــير بــه.. ومــن خلاله.

مسعود: لمن يريد. انا لا اريد.

محمود: ادري. لقد استحال حفر القبور عندك، وجودا.. وغراما.

مسعود: (صارخا) ولد.. لا تتماد (يسعل) انه مورد للعيش.. لا غير.

محمود: ما اتعسه من مورد تلعب به اقدار الفواجع.. وعواصف النحــس والالام. يتجاذبه المد والجزر.

مسعود: شأنه شأن أي شيء اخر. في هذا الزمن الردي..

محمود: مدّه طاغ. مهلك، مدمر.. وجزره.. ايضا.. قاتل..

مسعود: (باحساس بالحصار والضيق) محمود كفى.. كفى..

محمود: (يلاحقه) ايام المد تبدو في غاية الابتهاج والسرور. يطــير بــك الفــرح والسعادة بينما انا لا انام. منظر الرجال المتوجيــن بــالوحل يرعبنــي.. يزرعني بدبابيس الارق والعذاب.. دنانيرهم المنقوعــة بــالدمع والــدم. نيران تشويني. وفي الايام الاخر. حيث لا رجال ملبســين بــالطين. ولا دموع ولا عويل. تريم عليك الكابة.. يسكنك الحزن كانك فقدت اعــز مــا عندك.. وتروح تحفر وتحفر، لعل الله او الشيطان. وكليهما فــي حــالتك سواء. ينجدك وانا في داخلي اتهرأ.. اعرف ان موردك شــحيح واليــوم الذي لاتكسب فيه. لا تاكل. فابتهل الى الله، مثلك. وامزج دعائي الصامت بدعائك الصارخ الاخرس. الذي يملأ جوانحك ويسيل من اطراف جســمك. عساه.. ولعله.. (يسد كلتا عينيه) اه.. ما افظع ذلك!!

مسعود: (كمن في غيبوبة) عـــ.. عسى.. عسى.. ولعل.. عسى.. و..

محمود: (برعب) ان.. ان.. يستجيب لدعائي.؟

مسعود: (منتفضا) بل ان يمحقك انت ودعاءك الشرير.. يـــا.. وغـد. رح.. يـا محمود. رح ولا ترني وجهك (محمود يحدق فيه بغرابة) مــالك جمـدت هبا.. هيا.. رح..

محمود: اين اروح..؟

مسعود: اينما ترح.. رح.. رُح.. الى جهنم. اتركني.. اتركني حسب.

محمود: اتركك؟ اتعني.. حقا ما تقول..

مسعود: آ.. آ.. أجـــ.. اه. اه. (يمسك قلبه ويتلوى)

محمود: لا. لا.. انت لا تعني.. ما تقول.

مسعود: (يصرخ) بل اعنيه.. اعنيه.

محمود: انت تعني.. العكس.. عكس.. ما تقول..

مسعود: لا. لا.

محمود: قبل هنيهة.. كنت تصرخ.. كل كيانك يصرخ ويتوســل.. لا تــتركني يـا محمود لا تتركني.. يا ولدي.

مسعود: (يتلوى) لا. لا.

محمود: كنت تقولها بهمس. ولكني كنت اسمعك.. ملء اذني. انا اسمع كـــل مـــا يدور في خلدك.. حتى قبلما ينطق به لســـانك.. اعــرف.. كــل خلجـات نفسك.. قبلما تفصح عنها.

مسعود: اه.. اه.. (يسعل)

محمود: لتطمئن يا عمي مسعود.. اطمئن لن اتركك.. لن اتركـك ابـدا.. حـرارة ندائك وتوسلك. احرقت كل ما كنت افكر به واخطط له. انا.. انا.. ابنــك..

و.. تلميذك الوفي الامين.. البي لك كل طلباتك.. انفذ لك كـــل رغبـــاتك.
حتى تلك التي لسبب ما.. لا تعلن.. عنها..

مسعود: كفى.. محمود.. كفى..

محمود: اذا كانت المدرسة قد طردتني.. فانت مدرسيتي.. واذا كان ابي مقعدا، لا يقدم ولا يؤخر.. فانت ابي.. واذا كانت امي عمياء لا ترى.. ولا تبصـــر فانت امي.. عمي مسعود.. لا تدري كم احبك.. اه.. اه.. لو تـــدري كـــم اتمزق اذ اراك تنطفي وتغيب مع الشمس وتأوى الى سقيفتك المتهرئـــة هذه وحيدا مهجورا. خالي الوفاض.. لان الزمن القاسي لم يسعفك بـــ... بـــ.. ابـــ.. بـــ.. (يلقي بنفسه عليه، يحتضنه يبكي بحـــرارة) لا يقـــوى لساني على لفظه.

مسعود: لا تلفظه يا ولدي لا تلفظه (يربت على ظهره بحنان) والان.. كفـــى يـــا محمو.. كفى يا ابني.. هيا.. هيا.. معي.. كفانا ما ضعينا مـــن وقـــت.. هيا.. نحفر.. بضع..

محمود: (يرتد) نحفر؟ المزيد؟ لمن؟ لقد حفرت اكثر من عشرين قبرا. ومـــا مـــن احد يشغل أي واحد منها. لا موتى اليوم.. ولا حتى ميتا واحداً. (بصـــوت غريب) هل.. اتيك.. بـــ.. بواحد؟

مسعود: (يدفعه عنه بقوة) اخرس. لعنك الشيطان.. (يسعل)

محمود: ذلك ما افكر به الا يتوجب علي ان ارد لك بعض فضلك علي..

مسعود: انت.. مجنون.. مجنون..

محمود: انا.. اسير فضلك.. انا عبدك.. لقد انقذتني وأبوي من موت محقـــق.. لا ينبغي ان ادعك تنطفيء امام ناظري.

مسعود: لعنك الله، ولعن الساعة التي..

محمود: لن ابقى اسير فضلك الى الابد.. واذا كان ابواي عاجزين فانا..

مسعود: انت شرير.. ولد شرير.

محمود: انا عبدك سيدي. أمرني اتمدد داخل احد قبورك. ثم هِل على التراب هيا.. هيا.. لا احد هنا.. لا احد يرانا. (يتوجه نحو احدى الحفر)

مسعود: (يدفعه عنها بقوة) محمود.. ارحمني.. اغرب عن وجهي (يعصـــر قلبـــه ويسعل)

محمود: انا.. احبك.. لا اطيق فراقك.. يا عمي.. ليس لي سواك.. انت.

مسعود: (يصرخ) محمود.. كف عني.. محمود.. محمود..

الحارس: (صوته من بعيد) محمود؟ هل جاء محمود (ثم) مسعود.. ارسله الي يـــا مسعود.. ارجوك.

مسعود: (بوهن) اذهب.. اذهب.. الى خليل الحارس.. انه يناديك.

محمود: لا. لا تدفعني الى احد.. دعني معك.. معك حسب.

الحاري: محمود.. محمود.. ولدي.. اما تؤدي لعمك خدمة صغيرة.

مسعود: هيا.. هيا.. انه في حاجة اليك.. اذهب اليه.. اذهب.

محمود: وماذا عن حاجتك الي انت..؟

مسعود: انا لا حاجة بي اليك.. لا احتاج اليك.. البتة.

محمود: بل.. بل..

مسعود: اذهب.. اه.. اذهب.. لا تدعني اهشم راسك (يتناول المعول مهددا)

الحارس: تعال.. يا محمود.. تعال.. اشتر لي علبة سجائر.

مسعود: (يهجم عليه بالمعول) اذهب.. والا قتلتك.

محمود: (مبتعدا عنه) انا قادم.. عمي خليل انا قادم (قبلمـــا يختفـــي، لمســـعود) ساعود.. عمي مسعود.. ساعود.. ثوان.. واعود اليك.

مسعود: (يرميه بالمعول) اخذتك الابالسة.. يا ملعون (محمود يخطف المعول الذي اخطأه، يختفي باتجاه صوت الحارس. مسعود يتلوى) اخ.. اخ.. يعصـــر قلبه.. يشتد عليه السعال.. تاخذه نوبة متواصلة.. يتحامل علـــى نفســه باتجاه حب الماء. يسقط دونه يتمرغ بالتراب. كمن داهمه الصرع يحـــاول النهوض. لا يقوى.. بصوت مخنوق. ممزوج بالسعال) محمود.. محـــ.. مـــ.. و.. د.. وو.. و.. لد.. ي.. محـــ.. مـــ.. و.. ددد. (يتوقف عـــن الحركة تماما)

محمود: (صوته من بعيد) عمي مسعود.. انا قادم.. قادم اليك (يدخل لاهثا. وهـــو يحمل على عاتقه جثة الحارس. مهشم الراس. مضرجة بالدماء) عمـــي.. عمي.. مسعود.. اه (يلقي الجثة في الحفرة التي اعدها مسعود للحـــارس بصورة عفوية. يعود الى مسعود هلعا) مسعود.. عمي مســـعود.. مـــاذا بك؟ ماذا جرى لك (يحركه.. يجمد.. يطلق صرخة هائلة ثم يجر مســـعود الى السقيفة، ينزع. ملابسه يرتدها هو.. ثم يحمل الجثة الى الحفرة التـــي كان مسعود قد تركها مفتوحة.. يهيل فوقه التراب. ثم يعـــود الـــى قـــبر الحارس. يهيل فوقه التراب هو الاخر. يحمل المعول. يسعل تمامـــا كمـــا كان مسعود.. يفعل.. يشرب ماء. يغسل وجهه. يدخن سيجارة من علبـــة سجائر مسعود...يسعل تأخذه نوبة سعال، ينهض. مقوس الظهر.. يبحـــث عن موضع جديد. يحفر بهمة ونشاط. لا يناسبان هزاله الظاهر.. لا يكف عنه السعال. بنبرات تشبه نبرات صوت مسعود يقول) الحـــظ لا يطـــرق الباب دائما.. ولكن حين يخطا ويطرق.. الباب.. يجب ان يكون ثمة مـــن يفتح له بسرعة. ويرحب به. قبلما ينتبـــه ويصحـــح خطـــأه.. ويعـــود ادراجه.. (يسعل وهو يواصل الحفر..).

* * *